

العادات السيئة

وكيف تنشأ

كيف تنشأ العادة في مجموعة من الناس ؟

قد يكون الجواب أن توهم المصلحة هو الذى تنشأ به العادة ، فإذا صح ذلك أمكن أن يكون لهذا التوهم سلطان يختلف قوة وضعفا بقدر ما يكون لهذه المجموعة البشرية من حظ في سلم الرقي ، وإذن فكلما كانت الجماعة من الناس أقرب إلى السذاجة ، أى إلى طفولة الاجتماع ، كانت أكثر خضوعا لما يتخيله لها توهم المصلحة .

وفي العادات حسن وقبيح ، وفيها نافع وضار ، ولكنها تختلف في ذلك باختلاف الشعوب والأجيال ، فقد يرى جيل من الناس أو أمة من الأمم أن المصلحة في عادة معينة فترضاها وتحرس عليها ، في حين أن هذه العادة نفسها تبدو لأمة أخرى أو جيل آخر ضارة أولا نفع فيها ولا ضرر فتستنكرها وترى في اعتيادها تقيصة أو عارا .

ونحن لنا عادات وفينا تقاليد ، وهى فاشية عندنا ، ما كان منها مستحسنا وما كان غير مستحسن ، فأما المستحسن فالرجاء في بصيرة الأمة وسلامة حسنها أن تحافظ عليه حتى لا يجرئه سيل العادات الأجنبية المؤذية ، وأما غير المستحسن فمئة عادات موزعة في القدم كالخروج إلى المقابر في مواسم الشهور والأعوام على صورته المعروفة ، ولحوق النساء بالجنائزات في مناظرهن المعيبة ، وتسويدهن الخدود والأيدى بالصباغ الأسود ، ووضعهن التراب على الرؤوس إظهارا للزن على الموتى ، ومنه ذبح الجواميس والمجول أمام العروش على عتبات الدور وعند القبور ، وإقامة المناحات للندب واللطم ، وتشجيع الجنائزات بالموسيقى المكتنبة أو بالطبول والمزامير ، ومنه تخلية الرجال بينهم وبين نسائهم عاما أو بعض عام كلما أصيبوا بفقد عزيز محبوب ، وهذه عادات فيها الشر والسوء حين لا خير فيها ولا معنى لها ، والواقع أن بعضها اندرس أو كاد ينقرض ، ولكن أكثرها لا يزال سلطانه قويا في كثير من الجهات . ومن عاداتنا ما هو قديم غير موغل في القدم ، كرقية عاشوراء ، وكملك العيد ، وزفة العرائس والعرسان في الشوارع العامة ، وحفلة الزار التي تقام في البيوت أو في بعض الأضرحة ، وكهذه العادات التي أخذناها عن المتقلبين من مختلف الأجناس الأميوية ، وهم كانوا يجلبونهم من بلاد شرق أوربا وجنوبها ثم لا يلبثون أن يصبحوا سادة يتبعهم أجدادنا الطيبون بالتقليد والمحاكاة .

وقد أخذت تتكون فينا الآن طادات جديدة لا ترجع إلى أصل من التغلب وسيادة الأمر والنهى أكثر مما ترجع إلى توهم المصلحة وخطأ التقدير وفساد التقليد ، حتى كأننا هبطنا في سلم الرقى الاجتماعى إلى الدرجة التى لم تتجاوزها الجماعات البشرية الساذجة . وإذا أردت مثالا في هذا المقام فتذكر عادة الرقص على الجازبند ، أليست هى عادة نقلتها عن همج أمريكا حافة المدينة الغربية ؟ وهل هى إلا صورة لما يفعله الهمج الآخرون في النواحي المظلمة من بقاع الأرض ؟ !

بل انظر إلى هذه العادة التى أخذت تزحف علينا والتي بدأت تضعف إنسانية الانسان في بيئتها المتعددة ، كلما حى وطيسها في حفلات الليل فأختلطت صور بنى آدم وبنات حواء اختلاط السمك في البحر ، أليست هى عادة ترجع بمن يظنونها غاية قصوى من غايات التقدّم والرقى إلى مضاجع الوحشية المتخبطة ومهاوى الجهالة العمياء ؟

ومثل العادة العادة في القبح وسوء الأثر كل عادة فردية تلازم شخصا واحدا ويلازمها ، فقد يألف الشخص الواحد عادة في كلامه أو فعله أو حركته فلا يفارقها ولا يفارقه ، حتى إذا تحدث الناس عنه ذكروه من أجلها بالسوء ، لا لأنه مصاب بهذه العادة فقط بل لأنه يصيب المجتمع منها بما يضره ويؤذيه ، فهذا الذى يلقى فضلات أنفه وفمه في الطريق العام أو في المجتمع الخاص ، وهذا الذى يضع رجيع يطنه تحت جدران البيوت أو على الأرض الفضاء أو في الماء الراكد أو الجارى ، وهذا الذى يترك أهل بيته يلقون من الشبايك أو ساخ البيت من كل سائل ويابس ، وهذا الذى يرضيه أن يحمل خادمه كأسه الدار وقذارة المطبخ فيلقها في الشارع ، وهذا الذى يقطع عليك حديثك ليتحدث هو بما يشاء ، وهذا الذى يسبقك إلى السلعة التى انتقيتها لنفسك ليأخذها لنفسه ، وأمثال هؤلاء ممن تجرى فيهم سيئات الأفعال والأقوال مجرى العادة الثابتة والخلق المقيم ، كلهم مصابون من ذلك بعدادات تجعلهم نكذ المجتمع ومصدر العدوى فيه ومضرب المثل السيئ والقذوة الضارة .

وقد سمعنا منذ حين طويل أن عناية الإدارة الدينية العامة اقتضت تأليف لجنة ناطتها بالنظر في أمر البدع السيئة التى يتوهم عامة الناس أن لها أصلا في الدين ، وكان المفهوم أن وراء هذه اللجنة غرضا طيبا هو إبراء المجتمع الاسلامى من عناصر الضعف والتخاذل وإنقاذ سمعة الاسلام من الظلم الذى تجره عليها نسبة هذه البدع إليه ، ولكن أين هذه اللجنة الآن ؟ ماذا فعلت وأية نتيجة من الخيرات تهت إليها ؟

على أننا نذكر أن ظروف الحرب الماضية قضت في إحدى سنواتها أن تبعث الحكومة إلى الحياة منشورا رسميا قديما اسمه "منشور مصادرة البدع والمرافات" وكان ذلك استجابة إلى رغبة أظهرتها المشيخة الأزهرية يومئذ ، فلما بعثوا هذا المنشور من قبره أذاعته وزارة

الداخلية وأذاعت معه أمرا يقضى أن يسهر البوليس على تنفيذه بجد واستمرار ، أفلا يحسن الآن ونحن مقبلون على ميادين الإصلاح الاجتماعى بهمة ونشاط أن يبعث منشور البدع والخرافات مرة أخرى ؟

ومن عجيب ما شاهدناه أن للحكم العرفى فى بعض نواحي الإصلاح أثرا لا يزال نتنى أن يلتفت إليه القانون العادى ، ففى سنوات الحرب الماضية أبطلت السلطة العسكرية بعض العادات السيئة وجعلت لبعضها الآخر قيودا تضعف شرها ، وكان ذلك خشية أن يصاب الجنود بضررها أو يؤدى اجتماع الجماهير حولها إلى الخروج عن مظهر السكينة الشاملة التى كانت مطلوبة يومئذ ، ولكن هذا الحكم العسكرى لم يكديتقلص ظله حتى رجع بعض العادات التى أبطلها أفظع مما كان ، ومن الأمثلة على ذلك رقص البطن ونحوه مما يقع تحت السمع والبصر فى مجازر الأخلاق ومصارع الكرامة والشرف .

وبين الآن أن نرى كيف نعالج ما فىنا من العادات والبدع التى لا يستغنى المصلحون عن معالجتها .

وعندنا أن علاج العادات والبدع العامة يكون من طريقين : أحدهما طريق القانون على شرط أن يعطى ضمانا لتنفيذه من الجلد والاستقرار وصدق الرقابة على المنفذين ، والثانى طريق الوعظ الهادئ المنع ، والدلالة على المصلحة والمضرة بالحجة اللينة المقبولة ، أما العادات الشخصية فعلاجها فى الناشئين وقايتهم منها ، والتربية القويمة هى لا سواها طريق الوقاية ، وعلاجها فىمن تجاوزوا عهد التربية محاولة حملهم على تركها بأن تتناولها ألسنة الإرشاد العام فتظهر ما فيها من أذى يعود على أصحابها وعلى الناس ما